العقيـــدة الشعرية

للأستاذ أحمد خاكى

يفرّق النفسيون فى العصر الحديث بين الايمان العلمى والايمان الشعري . أما الايمان العلمى فهو الذي يقوم على قواعد المنطق من فرض واستنباط واستقراء، ومن إثبات القضايا أو نفيها. إنه هو الايمان الذى يقوم على الواقع قبل كل شيء ؛ فهو يصدر عن الأشياء التى تقع فى الحس ، وهو الايمان الذى قام على تثبيته أمثال بكون ، وديكارت وهو الذى أقام العلم والفلسفة بما وانى حياتنا المادية من تقدم . أما الايمان الشعرى فيختلف عن ذلك كل الاختلاف ، فهو يقوم على جملة من الآثار النفسية تثبت فى نفس الفرد عن طريق العادة أو التخيل أو التصوّر ؛ فهو لا يرتكز على حقيقة محسوسة ملحوظة ، بل هو فيض خيالى مما تصوره الغريزة أو الرغبة أو الفطرة . وهو بعد ذلك ضرب من اللعب إذا أحسن التعبير عنه كان فناً له خطره

الايمان العلمى هو الذى يدفعنا إلى درس النجوم وعلاقات بعضها ببعض ؛ ولكن الايمان الشعري هوالذى يجب إلينا النظر إلى تلك النجوم . الأول نتيجة لدراسة منطقية خارجة عن نفس الانسان ، أما الثانى فهو نتيجة لآثار العوامل الخارجية فى نفس الانسان . الأول يمدنا بالقيم العلمية التى تكاد تثبت فى كل زمان ومكان ، والثانى بالقيم الأدبية أو الجمالية التى يختلف تقديرها باختلاف المقدّر والزمان والمكان

ولقد ازدهرت نظرية اللاشعور أو العقل الباطن في هذا القرن حتى أظهرت لنا نوعاً من العقائد الأدبية يعتنقها الشعراء فى قرارة أنفسهم دون أن يحسوا بوجودها . وأظهرت لنا كذلك أن الشاعر أو الاديب أو المتفنن قد يكون صاحب عقيدتين فى وقت معاً : أولاهما علمية تتصل بحقائق الحياة، والثانية شعرية تتصل بالخيال . وكان لهذه الفكرة خطر في النقد الحديث ، لأنها قلبت أوضاع النقد، وثارت بالتقدير العلمى القديم، ونبهت النقدة إلى أن يتدسسوا فى أطواء الشاعر حتى يروا معانيه التى كنها بوحى من عقله الباطن دون أن يكون عليها سلطان من عقله الواعى . وحسبنا من كل ذلك أن نثبت أن الأدب يقوم على هذه العقائد الشعرية، وأن أكمل الشعر هو الذى يصادف مثل هذه العقيدة الشعرية عند سامعيه أو قارئيه

ويولد الايمان الشعرى مع خيال الطفولة ، وهو كذلك يميز عقلية الهمج . ذلك بأنه يتصل بغرائز الفطرة الأولى : بالخوف والحب والعداوة والجنس . فاذا تقدمت البيئة الأدبية إلى مرتبة عليا من مراتب المدنية استعلى المتفننون بذلك الايمان الشعرى فتناوه تمثيلا فى النحت والتصوير والموسيقى والشعر وأطلق عليه الناس بعد ذلك اسم الفن . وهو لذلك يميز الانسان فى أحط درجاته، ويميزه كذلك فى عصور الفن الزاهرة. فالانسان الأول كان يصيم عفريتاً يعبده ليرضى خياله المفزوع ، والانسان المتمدن ما يزال إلى اليوم يصوغ امرأة من الذهب والعاج ليرضى رغبته الملحة . والعفريت والمرأة كلاهما نتيجة لذلك الايمان الشعرى الذى يتكر الواقع ويمنو للخيال . كلاهما يتفجر من نفس العين، ولو أن هذا قد هذب وذاك ما يزال فى حاجة إلى التهذيب . وكلاهما نتيجة غريزة من الغرائز : الأول نتيجة الخوف ، والثانى نتيجة الحب الجنسى .

* * *

وقد ذهب النقدة لذلك إلى أن الشعر ليس من شأنه حقائق الأشياء ، وأن الحدود بين العلم والشعر ينبغى أن تكون ظاهرة لا يعتدى أحدهما على الآخر. وليس عند هؤلاء شعراً ما يعالج قضايا منطقية، بل ليس شعراً ما يعرض لنواحى الخلق العام . فان آفاق الشعر لا تمتد إلى حيث ينبغى أن يبدأ النثر . بل لقد أمعن الناقد الانجليزى Richards فى ذلك حتى قال إن الكذب آية من آيات الشعر[1] فالشعر من الوجهة النفسية يرتكن على الخيال لا على الواقع ، والعقيدة الشعرية هى الحالة النفسية المثلى لعمل الشعر ، وهى كذلك الحالة النفسية لاستيعابه .

وإذا نحن حاولنا أن نطبق تلك المعايير النفسية على الشعر العربى وجدنا أنها تستقيم لحد كبير . والأصل فى التشبيه والمجاز والاستعارة أن تكون خداعاً نفسياً . وليس الشعر شيئاً إلا إذا

(١) ذلك يتفق مع رأى المتأخرين من شعراء العباسيين فقد قالوا: أعذب الشعر أكذبه .

كان تشبيهاً ومجازاً واستعارة. على أن شعراء العرب قد علوا عن تلك المرتبة الأولى من مراتب القصيدة الشعرية، وبعضهم قد تخيل فأنطق الجماد، وبعضهم قد تدله فصور المرأة تصويراً نفسياً دقيقاً.

وإليك بعد ذلك بعض أبيات لابن خفاجة الأندلسي يصف فيها جبلا حتى ترى مبلغ أي حد تنطبق هذه القطعة على الواقع وإلى أي حد تنطبق على الخيال:

وأرعن طماح الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة ... ويزحم ليلاً شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم ... لها من رعود البرق حمر ذوائب
أصخت إليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب
وقال إلى كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أواه تبتل تائب
وكم مر بي من مدلج ومؤدب ... وقال بظلي من مطى وراكب
ولاطم من نكب الرياح مماطني ... وزاحم من خضر البحار غواربي

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى
وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ... ولا نوح ورقي غير صرخة نادب
وما غيض السلوان دمعي وإنما ... نزفت دموعي في فراق الصواحب

وأحسب أن كل بيت من هذه الأبيات جدير بالتقدير. وهي جميعاً تكون وحدة جمالية لها أثر كريم في النفس. على أنها لا تنطبق على الواقع إلا قليلاً. فإذا أنت حاولت أن تتأثر عنصر الحقيقة من هذا الشعر لم تجد من هذا البيت وذاك البيت إلا أنه كان جبلاً عالياً مر كثير من الناس به في أيامه الخوالي. أما الجبل الذي يسد مهب الريح والذي يعتم عمامة سوداء من الغيم لها ذؤابات حمر من البرق؛ هذا الجبل الذي يمكن فيفكر، ويتحدث فيتفلسف، والذي ترجف ضلوعه من الأسى، وتذرف دموعه من الوجد؛ ذلك الجبل ما هو إلا خيال سام يصور الواقع لكنه فوق الواقع؛ وهو هو الذي نسميه شعراً

وإنما تمتاز هذه القطعة من الشعر بالجمال لأن فيها وحدة تسوي بين أجزائها جميعا، وفيها كذلك علو بالخيال من بيت إلى بيت، فهي تبدأ بشيء كالواقع لكنها تنتهي بشيء كالخداع.

على أنك تستطيع أن تقدرها إذا كنت في حالة نفسية خاصة، حالة نفسية تعترف بإيمان الشعر أو بالخداع أو بالخيال (سمه ماشئت)

لكنك لا تستطيع أن تقدرها إذا أنت وقفت بين البيت وبين البيت تحاول أن تتشكك في صدق المعاني وتحاول أن تفكر على الجبل أن يتكلم أو على الغيم أن يكون عمامة أو على الأيك أن يكون ضلوعا

* * *

على أن ذلك الإيمان الشعري يمتلك النفس أكثر ما يمتلكها عند قراءة القصة أو عند مشاهدة الرواية المسرحية أو عند قراءة ملحمة طويلة في الشعر. فإذا أنت ذهبت إلى المسرح لتشهد «هاملت» أو «سان جان دارك» فلست بمدرك ما في كل ذلك من الجمال إلا إذا وهبت نفسك لتلك العقيدة الشعرية. وربما علمت أن «هاملت» لم تحدث في التاريخ، وأن بعض وقائعها قد يكون محالا، وأن شبح الملك المقتول الذي يظهر فيها إن هو إلا ابتكار أتى به الخيال؛ ربما علمت كل ذلك ولكن أحسبك لا ترضى — وأنت مأخوذ بسورة الجمال — عن إنسان يحاول أن يقول لك إن هاملت لم تحدث وإنها كلها لغو من عمل الخيال. ذلك بأنك تحاول وأنت تشاهدها أن تمارس ذلك الخيال ممارسة شعرية فيحلو لك أن تنسى عقيدتك العلمية، ويحلو لك أن تؤخذ أنت بالعقيدة الشعرية وأن تخدع لأن ذلك الخداع في نفسه جميل. وهذا هو الذي يحدث بين جنوبنا حينما نبكي عند رؤية المأساة، وهو الذي يضحكنا عند مشاهدة المهازل والباذل على الستار الفضي

يروى عن سيدة أنها كانت تشاهد «عطيل» على المسرح. وحينما مضى الفصل الأول والثاني وجاء دور الوقيعة التي قام بحبكها ياجو تأثرت السيدة تأثرا شديدا لأنها رأت أن ياجو يغرر بعطيل تغريرا. فصاحت بعطيل: «إن هذا الملعون يخدعك أيها الأسود النبي» وفعل مثل ذلك أحد النظارة حينما رأى القوم يأتمرون ببوليوس قيصر، فقد حاول أن يطلع قيصر نفسه على سر المؤامرة. ومثل السيدة والسيد كثير بيننا. بل في الحق أننا جميعا مثل ذلك لأننا نكون مأخوذين بنوع من أنواع الخداع حينما نشاهد القصة المسرحية

ومثل ذلك يقال عن القصص الأخرى والروايات وعن اللاحم الشعرية الطويلة، فعلى قارئ هؤلاء أن يكون له من الايمان الشعرى ما يطوع له أن يرى نواحى الجمال فيها وما يستطيع به أن ينكر الواقع وأن يحسب الخيال واقعا. وفى الحق أن هذا أظهر ما يميز البيئات الأدبية التى ازدهرت فيها القصص المسرحية والشعر والروايات الأدبية الأخرى. والقصيدة الشعرية هي التى تفسر لنا كيف كان الناس يؤمنون أيام شيكسبير بتلك القصص التى صاغها المسرح مع ما فى أكثرها من خروج عن جادة المنطق السليم. بل نحن لانستطيع أن نفهم رجلا كشيكسبير إلا إذا قدرنا غرام بيئته بالشعر المسرحى وبالقصة المسرحية. ولا يمكننا أن نقدر كل ذلك حتى نزن عقائدهم الشعرية.

وفى الحق أن شيكسبير قد أفلح فى خلق مسرحياته لأن القصيدة الشعرية ملكت نفوس الناس في عهد النزابث. كان هؤلاء هم الذين يدفعون المال ليشهدوا المسرحيات، وكان هؤلاء عاملا هاما من عوامل الاخفاق أو النجاح. ولقد تميز هذا الجيل فى تاريخ انجلترة بأنه كان يؤمن إيمانا شعريا عميقا بما ياتى عليه حتى لقد كان يتذوق الشعر ويستوعب قصص المسارح. وكذلك يمتاز رواد السينما فى العصر الحاضر بتلك العقيدة الشعرية. والمسرحيات وروايات السينما فى نفسها تقوم على خداع العقل وخداع النظر وخداع السمع، لكن شيئا منها لن يصح فى روع الناظر أو السامع حتى يكون له قدرة على الايمان الشعرى.

احمد هاكى
المدرس بدار العلوم

جورجياس
او البيان
لأفلاطون
للأستاذ محمد حسن ظاظا

— ١٤ —

« تنزل « جورجياس » من آثار « أفلاطون » منزلة الشرف، لأنها أجل محاوراته وأكملها وأجدرها جميعاً بأن تكون « إنجيلا للفلسفة ! »
« رينوفييه »
«إنما تحيا الأخلاق الفاضلة دائما وتنتصر لأنها أقوى وأقدر من جميع الهادمين ! »
« جورجياس : أفلاطون »

الأشخاص

١ — سقراط : بطل المحاورة : « ط »
٢ — جورجياس : السفسطائى : « ج »
٣ — شيريفين : صديق سقراط : « سه »
٤ — بولوس : تلميذ جورجياس : « ب »
٥ — كاليكليس : الأثينى : « ك »(١)

ط — وإذاً فقد رأيت بالمقارنة يا بولوس أن طريقة مناقضتك لا تشبه طريقتى فى شىء. فأنت تفضل موافقة « الجميع » على موافقتى، وأنا أفضل اقتناعك وحدك وشهادتك وحدها، ولذلك قد عنيت بكلامك وتسويتك ولم أعن بالآخرين؛ فليق ذلك إذاً معروفاً فيما بيننا، ولنمض الآن إلى اختبار النقطة الثانية التى كانت موضوع نزاعنا. أترى « العقاب » عند « الاجرام » أفدح الشرور كما ظننتَ، أم ترى « الفرار من العقاب » هو الأفدح كما ظننتُ أنا؟ أو فلنمض هكذا: ألست ترى أن كلا من « العقاب بعدل »، و « لقاء جزاء الخطيئة » واحد؟

(١) انتهى سقراط فى العدد الماضى من إثبات أن ارتكاب الظلم أفدح من احتماله. وسنراه اليوم محاولا إثبات أن الفرار من العقاب أفدح من التقدم إليه « المعرب »